مجتمع يفتح أبوابه؟

العمل التطوّعيّ مع اللاجئات واللاجئين في ضاحية روكسل (مونستر) الألمانيّة

جيسيكا قطّان

السياق

في صيف العام ٢٠١٧، ضجّ في ساحة السوق البلديّ في ضاحية روكسل من أعمال مدينة مونستر الألمانيّة قرع طبلة يردّد إيقاعات موسيقيّةً شرقيّة. على هذه الأنغام، رقص كُثُر من المواطنات والمواطنين الألمان القاطنين في مقاطعة وستفاليا مع بشر قادمين من أنحاء العالم كافّةً. كان المشهد سورّياليّاً، إلى حدٍّ ما، ويتّسم بالتعدّد: سياسيّون محلّيّون يقدّمون البيرة والمشروبات غير الكحوليّة، ونساء ورجال يبيعون القهوة العربيّة والمناقيش وأرغفةً من الخبز الممزوج بالبهارات والسمك البرتغاليّ. ما هو سبب هذا الهرج والمرج؟ جمعيّة «مساعدة اللاجئين» في ضاحية روكسل تحتفل بمهرجان صيفيٍّ ذي طابع أمميّ. الجمعيّة محايدة طبعاً من حيث الدين. ولكنّها تستخدم، مع ذلك، بيت الرعيّة الكاثوليكيّ والأرض المحاذية التابعة للكنيسة.

تشكّل ضاحية روكسل جزءاً من مدينة مونستر. ومونستر مدينة ألمانيّة غربيّة متوسّطة الحجم تضمّ واحدةً من أكبر جامعات ألمانيا، وتتّسم بمساحات زراعيّة واسعة. ثمّة عائلات تعيش في روكسل منذ مئات السنين، وتشكّل جزءاً من كتلة سكّانيّة كاثوليكيّة يغلب عليها طابع المحافظة، ولكن من دون تطرّف أو عنصريّة. أحد أسباب هذه الظاهرة ربّما يكون الإيمان الكاثوليكيّ ذاته، الذي يثمّن فكرة التعاضد الإنسانيّ. ويعبّر المهرجان الصيفيّ عن انفتاح المدينة عموماً، وضاحية روكسل خصوصاً، على العالم. هذا يتلاءم والصور التي انتشرت عبر منصّات التواصل الاجتماعيّ العام ٢٠١٥ حين فتحت ألمانيا أبوابها لمئات الآلاف من اللاجئات واللاجئين، ولا سيّما من سورية والعراق وشبه جزيرة البلقان. من النادر جدّاً أن يواجه المرء ظاهرة كراهية الغرباء في مونستر. ولكنّ هذا الانطباع لا يسري على كلّ ألمانيا. فثمّة مناطق أخرى كثيرة، وخصوصاً في الشرق، لا يندر أن يواجه فيها الوافدات والوافدون حديثاً، والناس الذين يتعاطفون معهم ويصادقونهم، حملات من الانتقاد والتهميش والإقصاء.

لئن كان الانفتاح على الغرباء مسألةً غير مستغربة في ضاحية روكسل، إلاّ أنّ هذا لا يعني عدم وجود اختلاف بين مجرّد الاحتفال بمهرجان صيفيٍّ من جهة، والمتابعة المتواصلة لشؤون المهاجرات والمهاجرين سعياً إلى تخطّي ما يواجهونه من مصاعب من جهة أخرى. فمثل هذه الأمور غالباً ما تتطلّب الكثير من الوقت والجهد. والحقّ أنّ عدد الذين يمتلكون القدرة على ذلك بالنظر إلى الوقت والاستعداد الداخليّ ليس مرتفعاً حتّى في ضاحية تتّصف بانفتاحها مثل روكسل.

الخطّة

بحسب خطّة تعود إلى ما قبل العام ٢٠١٥، قرّرت مدينة مونستر إقامة بيوت لجوء يتّسع كلّ منها لخمسين شخصاً على أن تكون منخرطةً في النسيج الاجتماعيّ والمعماريّ للمدينة، وذلك بخلاف مدن أخرى في ألمانيا تقوم فيها هذه البيوت على أطراف المدينة ويأوي كلّ منها حوالى مئة شخص. ولكن في سياق موجات اللجوء التي تكثّفت منذ العام ٢٠١٥، عاد من غير الممكن الإبقاء على هذه الخطّة كما هي. فتمّ بسرعة إنشاء بيوت إضافيّة لاستقبال أعداد كبرى من اللاجئات واللاجئين في أماكن كانت قبلاً ثكنات للجيش البريطانيّ. ولكنّ هذه الأمكنة ليست مجهّزةً لاستقبال الناس لفترة طويلة. لذا، يتمّ تشجيع كلّ عائلة من العائلات على الانتقال، خلال مدّة قصيرة نسبيّاً، إلى شقّة تستأجرها. ولكن، للأسف، هذا الأمر كثيراً ما يكون غير متاح، وذلك بسبب قلّة الوحدات السكنيّة في مونستر وألمانيا عموماً، ولا سيّما بالنسبة إلى عائلات كبيرة نسبيّاً يتراوح عدد أفرادها بين خمسة وثمانية. في روكسل، مثلاً، هناك عائلات تقيم منذ أكثر من خمس سنوات على مساحة تتألّف من مجرّد غرفتين وحمّام صغير ومطبخ متواضع الأثاث. ويشكّل السكن على مساحة ضيّقة كهذه عاملاً غايةً في السلبيّة خصوصاً بالنسبة إلى الطلبة الذين يحتاجون إلى مكان رحيب للدرس والقيام بوظائفهم المدرسيّة. يضاف إلى ذلك أنّ اللاجئات واللاجئين الذين

يعيشون في مثل هذه البيوت يخضعون لعدد من القوانين المجحفة كتلك التي تمنعهم، مثلاً، من ابتياع أثاث خاصٍّ بهم أو تعليق صور على الجدران. ومن البديهيّ أنّ غياب إمكان التحكّم بالفضاء الذي يعيش فيه المرء يصعّب عمليّة «الاندماج» في المجتمع الجديد. ولكن، بالمقابل، تكمن إحدى نقاط القوّة لمثل هذه البيوت في وجود مساعد اجتماعيّ، أو مساعدة اجتماعيّة، يقضي هناك ساعاتٍ كثيرة في الأسبوع. هذا يتيح لقاطني البيت التوجّه إلى هذا الشخص لدى مواجهتهم مصاعب في حياتهم اليوميّة، وذلك من دون التقليل من أهمّيّة عوائق التواصل والاختلاف في المفاهيم والمنطلقات الثقافيّة. كما تشكّل بيوت من هذا النوع، بالنسبة إلى المتطوّعات والمتطوّعين، مكاناً يتيح لهم نسج علاقاتهم الأولى مع الوافدات والوافدين حديثاً إلى المدينة، ولا سيّما تنظيم دورات مجّانيّة لتعليم اللغة الألمانيّة.

إنّ غالبيّة اللاجئات واللاجئين الذي يصلون إلى مكان مثل روكسل يكونون قد أمضوا شهورهم الأولى في ألمانيا في مخيّمات كبيرة مخصّصة لعمليّة الاستقبال الأوّليّة. وعلى الرغم من أنّهم يكونون قد قدّموا طلب لجوء، إلاّ أنّهم يحتاجون في العادة إلى مساعدة في أمور شتّى مثل فتح حساب في مصرف أو الاتّصال بطبيب أو التواصل مع المدرسة ودار الحضانة. في معظم الأحيان، يضطلع المتطوّعات والمتطوّعون بهذا الدور. وهم يتمتّعون بميزة لا يستهان بها تقوم في قدرتهم على استخدام وقتهم بكثير من الطواعيّة، فضلاً عن إلمامهم الدقيق بظروف الحياة في المكان الذي يتطوّعون فيه، كأحوال السكن وأوضاع المدارس ومعرفة الأطبّاء معرفةً شخصيّة.

جمعيّة «مساعدة اللاجئين في روكسل»

مع بدء موجات اللجوء المتسارعة في العام ٢٠١٥، انخرط عدد من المتطوّعات والمتطوّعين في ضاحية روكسل في العمل مع الوافدات والوافدين حديثاً إلى منطقتهم. وما لبثوا أن نظّموا صفوفهم في العام ٢٠١٦ عبر تأسيس جمعيّة لا تبغي الربح تحمل اسم «مساعدة اللاجئين في روكسل»، ما سهّل عليهم جمع التبرّعات والحصول على أموال من الدولة للقيام ببعض المشاريع. يقوم أحد أبرز نشاطات هذه الجمعيّة وأكثرها شعبيّةً في تنظيم لقاء حول القهوة يحصل مرّةً كلّ ستّة أسابيع في أحد البيوت التابعة للكنيسة. ويتيح هذا اللقاء للسكّان الأصليّين وللاجئات واللاجئين أن يتعارفوا ويتبادلوا أطراف الحديث في جوّ تسوده الألفة فيما هم يحتسون القهوة ويتناولون الحلويات الألمانيّة والشرقيّة. الأكيد أنّ المناخ الذي ساد في البدء من جهة «الألمان» هو أنّهم يريدون المساعدة ويستطيعون أن يساعدوا. وهذا صحيح إلى حدٍّ بعيد. هكذا تدفّقت التبرّعات العينيّة، وخصوصاً الثياب وألعاب الأطفال والكتب، فيما أجّر بعض أصحاب البيوت شققاً يملكونها لعائلات لاجئة، وانبرى آخرون إلى إعطاء دروس خصوصيّة للأولاد. ولكنّ السكّان «الأصليّين» سرعان ما اكتشفوا أهمّيّة الغنى الإنسانيّ الذي تزوّدهم به مثل هذه اللقاءات، وتعلّموا تثمين الحرارة التي كان الوافدات والوافدون حديثاً من منطقة الشرق الأوسط والبلقان يسألونهم بها، بلغتهم الألمانيّة الضعيفة، عن صحّتهم أو عن العمليّة التي أجراها أحد أولادهم الأسبوع الفائت. ولقد أثبتت جائحة كورونا أنّ «الألمان» يفتقدون اليوم هذا اللقاء الدوريّ، ما دفعهم إلى العثور على طرق أخرى للالتقاء بالسكّان الجدد. هذا يدلّ على بدء نشوء صداقات لم يقلّل الحجر الصحّيّ من زخمها. فالسكّان القدماء ليسوا مجرّد بشر يقدّمون العون، بل هم يحتاجون أيضاً إلى مثل هذه العلاقات الوديّة، إذ هي تساهم كثيراً في مدّهم بحرارة القربى وتوسيع آفاقهم.

تغيّرت طبيعة عمل الجمعيّة التطوّعيّة حتّى قبل الجائحة. فالسكّان الجدد عادوا لا يحتاجون إلى دروس بالألمانيّة، وذلك لأنّهم انخرطوا شيئاً فشيئاً في دورات رسميّة لتعلّم اللغة تدفع السلطة المحلّيّة تكاليفها، واعتادوا الذهاب إلى الأطبّاء بمفردهم. غير أنّ عمليّة التعارف المتبادل لم تنتهِ. لذا، سارعت الجمعيّة إلى إقامة نشاطات ثقافيّة كعرض أشرطة سينمائيّة مسائيّة وتنظيم أمسيات أدبيّة باللغتين العربيّة والألمانيّة، فضلاً عن جلسات تثقيفيّة للنساء والرجال في أمور تختصّ بالحياة الجنسيّة وتحديد النسل إلخ.

التحدّيات

لا شكّ في أنّ الوافدات والوافدين حديثاً قطعوا، منذ العام ٢٠١٥، شوطاً كبيراً في ما يسمّى عمليّة «الاندماج». ولكنّ الثابت أيضاً أنّ هذا المصطلح إشكاليّ، لكونه يشير إلى حركة من جهة واحدة، فيما الخبرة تشي بأنّ ديناميّات التواصل والتبادل والتناضح (osmosis) بين السكّان الجدد والسكّان القدماء تتمّ في الاتّجاهين. ومن ثمّ، يطرح الواقع الحاضر عدداً من الأسئلة المفتوحة التي ينبغي التفكير فيها مليّاً: متى يتوقّف المرء عن كونه لاجئاً؟ وكيف ينعكس هذا على ماهيّة الجمعيّة التطوّعيّة المنشأة حديثاً؟ هل يحقّ لنا، مثلاً،

أن نبقي على تسمية «مساعدة اللاجئين»؟ أليست فكرة المساعدة والتضامن أحاديّةً وعاجزةً عن التعبير عن ديناميّات التبادل؟ من جهة أخرى، لا نستطيع أن نقول إنّ موجات اللجوء قد انتهت. فهناك كُثُر ما زالوا يلجأون إلى ألمانيا أو يرغبون في القدوم إليها.

كلّ هذا يفضي بنا إلى سؤال يُطرح بقوّة منذ عقود في ألمانيا: كيف يمكن المحافظة على الهويّة الثقافيّة رغم «الاندماج»؟ إنّ كُثُراً من الذين انخرطوا في تعليم اللغة الألمانيّة، مثلاً، يتبرّمون من أنّ أولاد الوافدات والوافدين يتردّدون في إقامة صداقات مع أولاد ألمان. ولكنّهم بذلك يتجاهلون أهمّيّة العلاقات مع الأصدقاء والأقارب الذين ينتمون إلى الثقافة ذاتها، ودور هذه العلاقات في المحافظة على هويّة باتت تفتقر إلى الأرضيّة الجغرافيّة والمجتمعيّة، ولا تستند إلى أيّ قاعدة ملموسة سوى العلاقات الإنسانيّة مع مَن يتكلّم اللغة ذاتها ويأتي من المنطقة ذاتها. من جهة أخرى، يطرح تبدّل المنظومة القيميّة على الوافدات والوافدين بقوّة قضيّة تربية الأولاد والحدود بين المسموح والمُستكرَه والممنوع. هل سيقبل الوالدون، مثلاً، زواج بناتهم وأبنائهم من شريك ينتمي إلى دين آخر؟ وهل سيتعايش الرجال (والنساء) مع فكرة أنّ القوانين الألمانيّة تعاقب الرجل إذا هو ضرب زوجته أو بناته؟

إلى ذلك، هناك سؤال على جانب كبير من الأهمّيّة: كيف نتخطّى الصعوبات التي تعيق قيام صداقات متساوية ومتوازنة بين بشر ينتمون إلى ثقافات مختلفة؟ لا ريب في أنّ هذه الصعوبات لا ترتبط بالسياق الثقافيّ فحسب، بل أيضاً بالسيرة الذاتيّة المختلفة. فمعظم الوافدات والوافدين فقدوا، قبل قدومهم، كلّ ما بنوه في حياتهم بسبب الحروب. أمّا السكّان «الأصليّون» في منطقتنا، فيستطيعون أن يتّكئوا في وجودهم لا على ما بنوه هم شخصيّاً فقط، بل على ما قامت به الأجيال السابقة أيضاً من بنيان. يضاف إلى ذلك أنّ الوافدات والوافدين يتعيّن عليهم لا أن يستوعبوا فقط فقدان ما فقدوه، بل أن يراقبوا أيضاً، ولو من بعد، تحلّل الفضاء الحياتيّ والثقافيّ الذي أتوا منه، وذلك بفعل الحروب التي لم تنتهِ بعد. كلّ هذا يفضي إلى هوّة يعسر تخطّيها بين السكّان الجدد والسكّان القدماء.

هذه الأسئلة، وغيرها كثيرة، ستواكب، ولا شكّ، عمل المتطوّعات والمتطوّعين في السنوات القادمة. ربّما يكمن بعض عزائهم في أنّهم لا يحتاجون إلى الإجابة عنها كلّها نظريّاً فيما هم يتعاطون يوميّاً مع السكّان الجدد في ضاحية روكسل. فالهدف كثيراً ما يكون هو الطريق الموصلة إلى هدف لم تتّضح كلّ معالمه بعد...

(تعريب: أسعد قطّان)